

المخطوطات الإسلامية في خزائن مكتبة برلين

من

بروسيا - صاحب مكتبة برلين في بداية تكوينها - [فريدريك ويليام - ١٦٢٠ - ١٦٨٨ م] جهوداً كبيرة من أجل الحصول على المخطوطات الإسلامية والعربية ، فأرسل لهذا الغرض الذين من معاونيه - من المتخصصين في الدراسات الشرقية - « هنريش بفرمان » لجمع ما يمكن جمعه منها ...

وبمرور الزمن : كان للعلاقات الخاصة بين بروسيا والدولة العثمانية ، وللتحالف التاريخي بين ألمانيا وتركيا ، خلال حربين عالميتين ، أثر واضح في تسهيل عملية انتقال المخطوطات العربية والتركية والفارسية إلى مكتبة برلين ..

وتستطيع أن نقول - بصورة عامة - أن عمليات الاتجار المشبوهة ، التي أجرتها أوروبا مع بلدان المشرق والمغرب الإسلامي كان لها دورها في تسرب كميات كبيرة من المخطوطات ، حيث حرص التجار الغربيون على نقل ما استطاعوا نقله منها باعتبارها مواد علمية واثرية ذات قيمة . و في بعض الأحيان على سبيل الذكرى من هذه البلدان .. فاستطاعت « شركة الهند الشرقية » - على سبيل المثال - التي استهنت بريطانيا لإدارة شؤون

مع ان العلم لا يحد من انتشاره حدود جغرافية ، إلا أن ما ينطبق على المؤلفات المطبوعة والمنشورة قد لا ينطبق على المخطوطات التي ظلت في حوزة أهلها على طول التاريخ .. حتى وإن تأخر انتفاعهم بها بحكم ظروف طارئة .. ولكن قيام الغرب باستلاب المخطوطات العربية التي تمثل في معظمها ، الرصيد الثقافي والحضاري للأمة الإسلامية عبر الأجيال ، يكون قد جرى بالفعل حرمان الأمة من حقها في الانتفاع بما تراه مفيداً من هذا الرصيد ، بهدف إحداث الانقسام الذي يزيد من اغتراب المسلمين المعاصرين عن ماضيهم .. وقد يكون مصطلح « الإحياء » الذي ارتبط بالتراث ، أكثر ملاءمة للأمة الإسلامية المعاصرة ، إذا ما تمت عملية « تحقيق » تراثها بالأسلوب العلمي الواعي الصحيح ..

وبالنسبة لمكتبة برلين - فقد انتقلت المخطوطات إليها عن طريق المعايير الشرعية وغير الشرعية ، التي استطاعت من خلالها أن تحصل معظم دول أوروبا على أعداد كبيرة منها - بحيث شكلت ركناً هاماً في مكتباتها وأنشئت لها معاهد الدراسات الشرقية - ومن هذه المعابر : القنوات الدبلوماسية سواء بطريق الإهداء أو الشراء .. وعلى سبيل المثال ، فقد بذل ملك

كيف انتقلت كنوز الحضارة الإسلامية إلى دول الغرب ؟

ومن خلال زيارتنا لمكتبة برلين - أو مكتبة الدولة الألمانية (الاسم الرسمي) - في مقرها الجديد بالقسم الغربي من مدينة برلين حيث توجد تسعة آلاف مخطوطة عربية .. و ٢٥٠٠ مخطوطة فارسية ، و ٣٥٠٠ تركية . و ٦٠ أوردية أيضاً ...

يمكن أن تطرح عدة قضايا حول هذا المورد الفكري والثقافي - في المراحل التاريخية المختلفة ، وأهميته في عملية التواصل الحضاري والثقافي للأمة الإسلامية ودوره في إمكانية إعادة صياغة العقل الإسلامي المعاصر .. لكن ، تبقى قضية هامة .. هي : كيف انتقلت كنوز الحضارة الإسلامية - التي أنتجتها وتمتتها وتوارثتها الأمة عبر تاريخها الطويل - إلى دول الغرب بهذا الكم والكثيف وفي فترات تاريخية معينة ..

وكيف يتم اختيار نوعيات معينة منها للنشر ، بعد أن تخضع للدراسة والبحث والفهرسة والتحقيق والمقارنة والحفظ من أوقات الزمان ، بتطبيق أحدث وسائل الحفظ والصيانة ..



■ مسؤول قسم المخطوطات بمكتبة برلين : متخصص في تاريخ الجزائر ، درس اللغة العربية في الجامعة الألمانية الشمالية ويتحدث بها بصعوبة .
■ ويعمل بالمكتبة منذ اثنتي عشرة سنة

■ قاعة المطالعة الرئيسية في مكتبة برلين - ويجاورها يوجد قسم الفهارس الذي يضم معلومات عن حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون كتاب ، وثلاثين ألف مخطوطة

■ تتصل عملية توزيع نسبة كبيرة من حوالي ثلاثة ملايين مخطوطة عربية وإسلامية في دول العالم الغربي بجنود الصراع الحضاري - الذي لايزال دائراً - بين الأمة الإسلامية والغرب ، حيث يسعى بإصرار إلى سلب هذه الأمة مقومات نهضتها .. وهذه المقومات تكمن في تحقيق التواصل الحضاري والثقافي للشخصية المسلمة ، منذ نشأة العقيدة الإسلامية وتفاعل حياته بها .. إلى عصرنا الحاضر ■■

الإقنناء.. إله النشر



■ مبنى مكتبة برلين في مقرها الجديد بالقسم الغربي من المدينة .. بلغت تكاليف انشائه مائتي مليون مارك ألماني ■

بمسؤول قسم المخطوطات والدراسات الشرقية (متخصص في تاريخ الجزائر ، ودرس اللغة العربية في الجامعة الألمانية الشمالية ويتحدث بها بصعوبة ، ويعمل بالمكتبة منذ اثنتي عشرة سنة) ..

وقد حدثنا حول عدد المخطوطات الموجودة بالمكتبة ، ونوعيتها والطابع المميز لها ، وطريقة حفظها وفهرستها .. يقول :

● يوجد في مكتبة برلين حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون كتاب ، أما المخطوطات فيبلغ عددها ثلاثون ألفاً ، منها تسعة آلاف مخطوطة عربية ، والباقي مخطوطات تركية وفارسية وهندية وصينية .. وهي جميعاً مدونة في فهرس خاص بذلك ، وأيضاً مدونة ضمن فهرس مختلفة عن المخطوطات العربية في ألمانيا .. منها :

فهارس المخطوطات

- فهرس مخطوطات جميعة المستشرقين الألمان في « Halle Saale » ، الذي نشره

تحظى المخطوطات الإسلامية منهم بالحفظ والعناية وعمليات التصنيف والفهرسة العلمية ...

مكتبة برلين

ومكتبة برلين . تعتبر إحدى المكتبات الأوروبية الهامة التي ساعدت الغرب كثيراً في دراسة قضايا الفكر والعلم والثقافة عند المسلمين ، وأفادت بذلك أجيالاً من المستشرقين .. وهي تأتي في المرتبة الخامسة بين مكتبات العالم - من حيث أهميتها للباحثين والذين يشتغلون بتحقيق التراث . بعد المكتبة الظاهرية بدمشق ، ومكتبات أستانبول بتركيا ومكتبة جامعة بريستون بأمریکا ومكتبات القاهرة والاسكندرية ..

وخلال زيارتنا للمكتبة - في مبناها الجديد بالقسم الغربي من مدينة برلين (عاصمة ألمانيا منذ 1871) الذي تكلف مائتي مليون مارك ألماني - حيث كانت المكتبة قبل ذلك تشغل عدة مبان قديمة مؤقتة - التقينا

مستعمراتها أن تتهب كنوزاً نادرة من موروثات المسلمين ، فكانت تطلب إلى رجالها ضرورة العودة إلى بريطانيا بمخطوطات وقطع أثرية كليل على نجاحهم في مهماتهم ..

المعرفة تمنح القوة

وبانتقال المخطوطات من البلاد الإسلامية إلى مكتبات أوروبا ومراكز ومعاهد الدراسات الاستشراقية بجميع مدنها تقريباً لوحظ زيادة السيطرة الغربية على بلاد المسلمين على ضوء ما حصل عليه الغرب من معلومات وأفكار عن الشخصية الإسلامية ، فالعزفة - كما يقولون - تمنح القوة ؛ ولعل هذا ما يوضح أبعاد العلاقة الرسمية الوثيقة بين الاستشراق والاستعمار ، فمن المستشرقين من عمل مستشاراً لوزارة المستعمرات في بلده مثل المستشرق « دي ساسي » في فرنسا ، والمستشرق « ماسينيون » الذي كان مستشاراً لإدارة المستعمرات الفرنسية في الشؤون الإسلامية ، ولذلك فلا غرابة أن

منه الإقناء.. إلى النشر

— أوراق المصاحف المخطوطة الموجودة بالمكتبة تكوّن عشرين نسخة، وهي تعود إلى عدة قرون: القرن السادس والسابع والتاسع والعاشر الميلادي ..

■ وعن رحلة المخطوطات إلى مكتبة برلين .. يقول رئيس القسم :

— يعود تاريخ حصولنا على معظم هذه المخطوطات إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وقد ساهمت في ذلك العلاقات والاتصالات التي كانت قائمة بين بروسيا والعثمانيين، خاصة فيما يتعلق بالمخطوطات التركية والعربية والفارسية، حيث كان ملك بروسيا قد كلف القنصل البروسي في دمشق بالبحث عن المخطوطات الهامة وجمعها وإحضارها، وتوجد الآن بالمكتبة ستون مخطوطة نتيجة جهود الناجحة ..

وتعتبر المصادر الدبلوماسية هذه إحدى الوسائل التي تم تزويد المكتبة بالمخطوطات عن طريقها، كما كانت الرحلات والبعثات المنظمة من الوسائل الهامة في هذا المجال، فقد قام الرحالة « إدوارد بلازر » بتقليب بعثة إلى اليمن، ومن هناك اشتري ٢٥٠ مخطوطة عربية، أحضرها معه إلى بروسيا ثم انتقلت إلى مكتبة برلين، كما قام « شبرنجر » - الذي كان يعمل

جری تصنيفها حسب لغاتها، وعُهد إلى علماء مختصين بوضع فهراسها، حسب اختصاصهم، إما بأنفسهم وإما بالاستعانة بالخبراء، ويدير هذا العمل الدكتور otto sples بجامعة Bonn ورودلف سلهايم R. sellhelm من جامعة فرانكفورت، بمساعدة الدكتور Evald Wagner من جامعة Mainz .

المخطوطات العربية

ويضيف مسؤول قسم المخطوطات الشرقية بجامعة برلين :

والمخطوطات العربية - بصفة عامة - عبارة عن مصاحف، ومدونات في علم التفسير وعلم الحديث وعلم الكلام، وفي التصوف، وفي الشعر والأدب، وعلوم اللغة، والنحو والصرف، وفي التاريخ والسيرة الشعبية ... ونسبيا، فإن عدد المخطوطات في الأدب والشعر كثيرة: والسبب في ذلك أن الرجال الذين كانوا يجمعون المخطوطات - في القرن الماضي - إما إنهم كانوا لا يجدون غيرها أو أنهم كانوا يحصلون عليها بسهولة ..

■ في أي القرون يعود تاريخ مخطوطات المصاحف الموجودة بالمكتبة ؟

■ ملك بروسيا - فريدريك ويليام (١٦٢٠ - ١٦٨٨) الذي تكوّن نواة مكتبة برلين في قصره، وقام بتزويدها بالمخطوطات العربية الإسلامية

هانس فير Hans Wehr في عام ١٩٤٠ - وفهرس مخطوطات السمياء الذي وضعه A. siggel، ونشره مجمع العلوم في برلين، كمساهمة في الفهرس العام لمخطوطات الكيمياء، الذي ينشر تحت رعاية اتحاد الجامع الدولي في بروكسل، وقد صدر من هذا الفهرس ثلاثة أجزاء :

- الأول: (برلين ١٩٤٩) ويتضمن مخطوطات مكتبة برلين،
- والثاني: (برلين ١٩٥٠) ويشمل مخطوطات مكتبة جوتا.
- والثالث: (برلين ١٩٥٦) عن مخطوطات مكتبات درسدن Dresden وميونخ Munchen.

■ وهل لا تزال توجد مخطوطات غير مفهرسة من بين ما تحصل عليه منها مكتبات ألمانيا حديثاً ؟

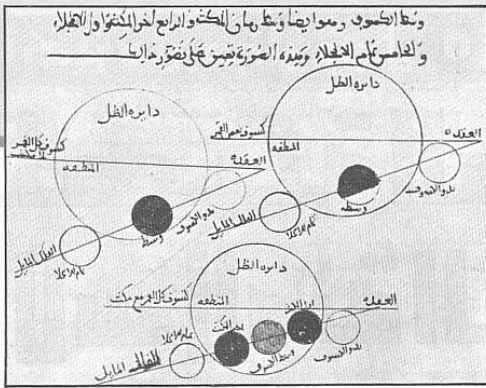
— في عام ١٩٥٥، تقدم أحد المتخصصين من ذوي الاهتمام هو الدكتور هـ. رومر باقتراح بإحصاء وفهرسة جميع المخطوطات الشرقية الموجودة في مكتبات ألمانيا، التي دخلت المكتبات بعد ظهور فهراسها، وقد قبلت الجهات المعنية هذا الاقتراح وبديء بتنفيذه، وقد تبين - نتيجة ملاحظات أولية - أن هناك ما يقرب من ١٤ ألف مخطوط غير مفهرس - في ألمانيا بشطريها، وهذه المخطوطات الموزعة في عدد كبير من المكتبات - قد

■ غلاف لمصحف مخطوط .. يجري تقدير تاريخ كتابته بدراسة نوع الورق وشكل الزخارف واسلوب الخط ■



■ يتم حفظ المخطوطات في اماكن مهياة، كما يتم فحصها بصفة دورية، ومعالجتها في معملين لترميم المخطوطات. واحد في ميونخ والاخر في برلين، القبا في الخمسينيات ■

■ مخطوطة عربية من
مكتبات مكتبة برلين (٢١٧٥)
سم ١٤٦ سم تتضمن
معلومات لتدريس علم الفلك
وهندسة المثلثات والحساب
(١٦٣٨-هـ/١١٣٨م) ■



في شركة الهند الشرقية - جمع عدد كبير من المخطوطات بلغ ألفي مخطوطة .. ثم كانت بعثة « لانت بيرج » - في أواخر القرن الماضي - التي كانت تهتم بقضايا الحرف اليدوية واللغات المحلية العامية في جنوب شبه الجزيرة العربية - وقد جمعت هذه البعثة خلال فترة عملها عدداً كبيراً من المخطوطات ..

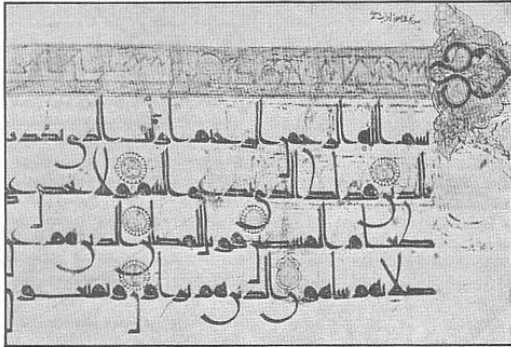
■ على ضوء دراستكم وخبرتمكم في مجال العمل بمكتبة برلين لأكثر من عشر سنوات ، كيف ترون أهمية المخطوطات الموجودة بالمكتبة بالنسبة لتطور دراسة الشؤون العربية والإسلامية في ألمانيا بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة ؟

— لقد كانت المخطوطات التي حصلت عليها مكتبة برلين - على مدى أكثر من قرن من الزمان - سبباً في تطور ونمو الدراسات العربية في أوروبا .. وعلى سبيل المثال ، فإن المستشرق الشهير « كارل بروكلمان » - الذي سجل تاريخ الآداب والعلوم عند العرب في خمسة مجلدات كان قد بدأ عمله هنا في مكتبة برلين ، وعكف بها على رصد معظم المؤلفات التي ضمنها كتابه « تاريخ الأدب العربي » من خلال ما أتاحت له المخطوطات الموجودة بها ..

كيف يمكن الاستفادة من المخطوطات ؟

■ وكيف يستفيد الطلاب الدارسون بمعاهد الدراسات الشرقية بالجامعات الألمانية من المخطوطات ؟

— يوجد في جامعة برلين - على سبيل المثال - معهدان لدراسة اللغات السامية ومعهد للدراسات العربية والإسلامية ، ويستفيد الدارسون بها من المخطوطات بصورة مباشرة ، ولكن تانياً أيضاً طلبات كثيرة للحصول على صور مخطوطات معينة من الباحثين والدارسين المتخصصين بالبلاد العربية .. وعندما تانياً هذه الطلبات نقوم بتصوير الصفحات المخطوطة المطلوبة ، ويقوم إدارة المكتبة بإرسالها خلال شهر أو شهرين ..



■ من المخطوطات القرآنية التي تقيمتها مكتبة برلين - صفحة من سورة الماعون - بالخط الكوفي ضمن مجموعة تضم خمس صفحات مفاص ٢٧×٢٥ سم ، مكتوبة على الجلد ■

— أشهر السلاسل التي تصدر الآن هي « المكتبة الإسلامية » التي أسسها هلموت ريتير H.ritter

— في عام ١٩٥٣ ، نشر رودلف شتروتمان R.strothmann رسالتين عن التصيرية ، الأولى مجهولة العنوان والمؤلف ، والثانية رسالة للشيخ محمود بامرة الحسين النصيري .
— وكان شتروتمان نفسه قد نشر بين عامي ١٩٤٤ - ١٩٥٥ - في منشورات مجمع العلوم في جوتنجن - كتاب « مزاج التسنيم ، وهو عبارة عن تفسير « اسماعيلي » للقرآن ..

— ونشر أيضاً (١٩٤٦م) في مجلة « الإسلام Der Islam » المجلد ٢٧ - كتاب « سبيل الأرواح ودليل السرور والإفراج إلى خالق الإصباح » المعروف بمجموع الأعيان ، لأبي سعيد ميمون بن القاسم النصيري ..

نوعية المخطوطات التي اختيرت للنشر

وحول مجالات الاستفادة من المخطوطات العربية والإسلامية الموجودة في مكتبات أوروبا وفي مراكز الدراسات الشرقية بجامعةاتها ، قد يكون من المفيد الإشارة إلى مجال النشر ، ذلك أن مزيداً من الشك يشعب حوله بالنظر إلى نوعية المخطوطات التي اختيرت للنشر من بين مبررات العقل الإسلامي ، وبصفة عامة ، فإن نسبة ما قام المستشرقون بنشره من المخطوطات لم يتعد ٢٠٪ أي حوالي ٩٥٠ كتاباً على مدى عشرين عاماً (بدأ نشاط المستشرقين الألمان في النشر بعد الحرب العالمية الثانية) ، ويرى الباحثون أنها من نوعيات معينة تتناول بصورة أساسية الفكر الأخلاقي والمذاهب الباطنية التي لا تقوم إلا في عصر الانحطاط الحضاري وضعف المسلمين :